بين الشك واليقين :

« شـــيللر »

للاستاذ خليل هنداوى

تتمة مانشر فى العدد الماضى

— ٣ —

فى عام ١٧٩٠ كتب شيللر الى صديقه « كاربز » الامين « ما أحوجنى الى رفيق يقيم معى ، ويقدر على اسعادى ، وتبديد وحشتى ونفى همومى ، وتجديد أيامى » ، وكأن الأقدار رغبت فى تحقيق رجائه فوهبته امرأة ماكان أدناها من هذا الصاحب الذى تمناه ، وفيها يقول « غوته » إن الجمال التى يرتسم على ملامحها ، واشعة الطهر تلمع فى عينيها . هى كثيرة الاحساس بكل ماهو خير وجميل فى الحياة ، تغلب على مشاعرها الرقة والايناس . وكان تأثير هذه الصاحبة الامينة فى حياة شيللر شديدا ، فقد تفتحت روحه بالأمل الذى هو سر الحياة ، وكتب اليها قبل زواجه منها « أصبحت أرى نفسى متفتحة لكل ماهو خير وجميل . قد وجدت نفسى ... » وبعد زواجه كتب « الآن غلب على مزاجى الاعتدال . وأيامى تنقضى خالية من ثورة الاهواء ، صافية هادئة . وقد عدت الى أعمالى بنفس ملؤها الطمأنينة كعادتى السابقة » وهذا الذى عرفناه ثائراً ، شاكا ، ناقما على نفسه وعلى الناس تميل روحه للاستسلام وتغلب عليه السكينة ، فاذا ماعراه داء شكر ربه لأن يدآ فوقه تبدى له من العطف اضعاف مايحس من الألم . وقد منحته السماء طفلا فقال « أحس بأننى أرى مشعل حياتى الذى بدأ يتوقد ، يشتعل فى غيرتى . اننى راض عن القدر ، ويتجه قلبه الى أمه الكهلة التى يضطرم قلبها عليه حباً وحنانا فكتب اليها « وكل مايجعل حياتك سعيدة يجب أن يكون لك يا أماه ! وان الواجب يقضى على أن أنقذ روحك من كل ملل . بعد تلك الاتعاب التى ارهقتك يجب أن يكون مساء حياتك صافيا هادئا ... »

استشاره رجل يريد ان يقبل على ذلك العلم الخطير (الفلسفة) فراح يصرفه عنه بقصيدة تصف مخاطر هذا العلم وطريقه الملتوية . « هل أنت متأهب مع سلطان برهانك الكئيب ؟

هل أنت ناضج الفكر لتظهر فى الهيكل الذى يحرس ... كنزه الخطير .

وهل أنت شاعر بما ستربى ؟ وبأى ثمن سوف تشتريه ؟

وهل أنت موقن بأنك تبذل شيئا لاتملكه لقاء شىء أكيد ؟

وهل تحس أن قواك كافية لمعركة هى أشد المعارك هولا ! تلك المعركة التى تثور بين القلب والروح والعاطفة والفكر ؟

وهل تملك جرأة وشجاعة تسعفانك فى قتال « ثعبان » الشك الخالد ، الكامن فى داخلك ؟

ألا فر ، وأمعن فى الارض فراراً ، اذا لم تكن واثقا كل الثقة بالدليل الذى تحمله فى صدرك . فر من هذه الشواطىء المغرية قبل أن تلتهمك الهاوية ... كثيرون هم ارادوا أن يمشوا نحو النور فوقعوا فى ظلمات فوقها ظلمات .

ألا ان الطفولة تؤول حقا بصاحبها الى نور الشفق ! »

إن هذه المقطوعة تبين أن الشاعر قد نقم على الفلسفة وسئم معنوياتها . واستغنى عن هدايتها . وكان موفقا كل التوفيق فى تمثيله مخاطرها . ولكن هل كانت الفلسفة كلها شكا يعذب ويؤلم ؟ ولكن هل تكون الحياة — وجميع ابوابها مغلقة — الا هذا الشك المؤلم ؟

والشاعر يبدى رأيه أكثر وضوحا فى هذا النوع من الفلسفة فى مقطوعته « صورة سايس المحجوبة »

وهذه هى المقطوعة : (١)

هجر الدار ، ولم يعبأ بما ... ستذوق النفس من برح الألم
جاعلا وجهته مصر ، لكى ... يفهم الاسرار ممن قد فهم
هذه « سايس » قد أرخت على ... وجهها الف حجاب تلثم
كل من يطلب يوما أن يرى ... وجهها يبلى بأنواع السقم
لم يزد صاحبنا الا جوى ... زاد فى القلب لهيبا وضرم
غافل الكهان عنها ليلة ... وتوارى تحت أسدال الظلم
رفع الاستار عنها ورأى ... (هل رأى حين رأى غير عدم) ؟

° ° °

لم يقل عما رآه ، وثوى ... بخشوع تحت أقدام الصنم
فبراه السقم حتى شفه ... وتردى جسمه حتى انهدم

(١) كتب (فرانك هاريس) هذه المقطوعة كقصة بعنوان (حجاب ايزيس) . وعربها الاستاذ سلامه موسى فى العدد السادس من الاسبوع .

قال : ويل للذى يطلبها بطريق منكر : ثم وجم !

* * *

وفى هذه القصيدة غموض يحاكى غموض الحقيقة . والفقرة الاخيرة منها تدل على ما ساور روح الشاعر من الندم الممض والألم العنيف . ولكن لماذا الندم ؟ هل ندم على معرفة الحقيقة ؟ ولكن هل هى الحقيقة الكامنة وراء الحجاب عرفها ؟! كنا نود ان نعرفها كما عرفها ، ونتذوق بعد ذلك ما تذوق الرجل فى سبيل معرفتها — ولكننى أخشى من ان الرجل لم ير — وراء التمثال — الا ما يحمل عادة التمثال ! والوثنيون انما يعبدون من التمثال ما نسجت قلوبهم وراء ملامحه من اقداس وطهارة . ولو انهم تمثلوا ما يعبدونه — بعقولهم — لما رأوا الا حجارة مسندة لا تضر ولا تنفع . وهؤلاء وغيرهم ممن ينشأون فى كل عصر انما يعبدون ما تصوره لهم قلوبهم وترسمه نفوسهم ، وهل تساوى اثنان من شريعة واحدة فى عبادة واحدة ؟ ذلك يتمثل فى صلاته شيئا لا يتمثله الآخر ، مع ان الصلاة واحدة والوجهة واحدة . وسر هذا الخلاف يعود الى ما يتمثله هذا القلب المباين لذلك القلب فى كثير من ضروب التفكير والشعور . وما اكثر اولئك الذين اذا منعتهم عن عبادة تمثالهم المقدس ! وأريتهم حقيقة عارية ، تقتل أمانيهم وتهدم حياتهم ، فيودون لو بقوا فى جهالتهم سادرين نائمين ! !

هذه الحقيقة التى تكاد تمثلها هذه القطعة هى حقيقة العدم ! ولكن هل اراد الشاعر ان يصل الى هذه الحقيقة ؟ انه وصل اليها طوعا أو كرها ، ولكنه ندم لانه اضاع قيمة حياته ! وهو انما يريد ان يعرف شيئا من الحياة هو اقدس واسمى من حقيقة الفناء !

ما كان أدنى شيللر بهدوئه وكآبته الصامتة فى أيامه الاخيرة من هذا الرجل الذى أخذ يتلاشى بعد معرفته الحقيقة ، فقد اخذت حوادث الدهر وصور الموت تجوز الى نفسه ، وهذه مقطوعة (الناقوس)

(فى فناء الكنيسة تتهادى رنات الناقوس ! تلك الرنات العالية التى ترافق اغانى القبر . تنبئ عن عبور المسافر الذى مضى الى ملجئه الاخير . واأسفاه ! ! هذا المسافر هو زوجة عزيزة ! أو أم اختطفها الموت من حضن زوجها ، ومن بين اولادها الذين منحتهم السعادة والغبطة ، وارضعتهم بمحبة ورفق . هذه الروابط الجميلة تقطعت الى الابد

لانها نزلت الى مثوى مظلم عميق ... هذه الأم !)

كانت هذه القصيدة بعد ثلاثة اعوام لسان حال شيللر فى الحوادث التى تتالت عليه ، فقد غادرت امه الوجود ، هذه الام التى كانت كلما ازدادت عمرا ، ازدادت عطفا على ولدها . كتبت له فى كتابها الاخير « لا يوجد ولد — كذلك — فى الوجود » . وأخذت صورة ولدها قبل أن يغتالها الموت وضمتها الى صدرها ضما شديداً ، واشبعتها لثما وتقبيلا ، وماتت بشرف على قبرها : صليب حجرى نقش عليه هذه الكلمة « أم شيللر »

أما الشاعر فقد تسرب اليه اليأس ، وزادت عليه الأسقام حتى خرب صدره وخارت قواه وفدت رئته . وهو — برغم ذلك — يريد ان يغلب على هذه المحن ناظرا الى غده الزاهى . ولكن المرض المبرح ضن عليه بكل شىء حتى بنعمة الأمل . ففى شتاء عام ١٨٠٥ استسلم للألم صامتا راضيا هادئا . ولكن ثورة الشك فى اللحظات الأخيرة طغت على نفسه وروحه ، أفلقها تساؤلها عن العالم الثانى : سمعه بعض عواده فى افاقة من اغفاءات الحمى يهتف « أهنالك جحيمك ؟ أهنالك ساؤك ؟ ولكن الكون المغمور بالملل والتعب غلب عليه فاستسلم ، والموت الا استسلام . وفى الأمسية الأخيرة سألته أخته القائمة على سريره « والآن كيف أراك ؟ فأجابها بصوت خافت : « أرانى دائما أكثر هدوءاً » . فكانت هذه الجملة هى آخر ما لفظت شفتاه ، ثم سكنت ملامحه ، وارتعش رأسه ارتعاشة واحدة ، ثم سكن منه كل شىء . وهو فى الخامسة والأربعين .

ما كان أقدس هذه الكلمة ؟ وما كان أكبرها باعثاً للهدوء فى النفوس المضطربة . ولكننا لا نعلم : أهو هدوء الايمان . أم هدوء الملل والقنوط .

هذه الكلمة وحدها تمثل كل حياة الشاعر وهى :

« أرانى دائما أكثر هدوءا »

دير الزور : خليل هنداوى

معرض مصرى

يعد المجمع المصرى للفنون الجميلة عدته لافتتاح معرضه الأول لفصل الشتاء فى ٢٠ فبراير سنة ١٩٣٤ بأنخم سرايات العرض المصرية ، وهو قاصر على الفنانين المصريين . وليتفضل كل من له رغبة فى الاشتراك بتقديم معروضاته بادارة المجمع بشارع عبد الحق السنباطى رقم ٥ (الأوبرا) وذلك حتى ١٥ فبراير .